جامعة عين شمس

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

الخطاب السياسي البحريني في الربيع العربي

حدث 14 فبراير 2011

دراسة تداولية

بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه الأدب العربي

إعداد الباحثة

زهرة عيسى حسن حرم

إشراف

الأستاذ الدكتور محمد عبدالمطلب

الأستاذة الدكتورة منى طلبة

جامعة عين شمس
كلية الآداب

رسالة دكتوراه

اسم الطالب: زهرة عيسى حسن حرم
عنوان الرسالة: الخطاب السياسي البحريني في الربيع العربي

اسم الدرجة (دكتوراه)
لجنة الإشراف

الاسم: محمد عبدالمطلب مصطفى الوظيفة: أ. متفرغ بالقسم
الاسم: منى محمد طلبة الوظيفة: أ. متفرغ بالقسم

تاريخ البحث: 24 فبراير 2015

الدراسات العليا أجيزت الرسالة بتاريخ

ختم الإجازة / / 2015

/ / 2015 موافقة مجلس الكلية

موافقة مجلس الجامعة / / 2015

/ / 2015

مقدمة

لم يعد مفهوم الخطاب اليوم؛ ذلك الجسد اللساني، الذي يُدرس ضمن بنى مغلقة؛ صرفية، ونحوية، وصوتية ... إلخ؛ بل إنه أضحى هذا الكيان الرحب، المنفتح على شتى العلوم، والمعارف الإنسانية المختلفة.

وعلى الرغم من مزايا الانفتاح؛ إن له محاذير كثيرة، أبرزها؛ اتساع وتعقد دائرة التأويل، وتعدد مداخل مقاربة أو قراءة هذا الخطاب. يتطلب ذلك جهدا خاصا لدراسة مفهوم الخطاب – أيا كان تصنيفه – وبحثا مساوقا لمناهج تحليل الخطاب المختلفة، التي تتطور باستمرار.

تسعى جميع قراءات ومقاربات الخطاب؛ للبحث عن المعنى الكامن فيه، ولا سيما أنه كثيرا ما يتستر وراء ظاهر القول؛ فالمخفي منه أكثر من المعلن، والمُنْجَز به أكثر من المراد. فكيف إذا كان خطابا أفرزته أحداث سياسية!

يدرس هذا البحث اللغةَ المكونة للخطاب السياسي في حدث الـ 14 من فبراير في البحرين؛ ويُحلل كيفية صياغة هذا الخطاب الحقيقةَ، وتمثيله القوى المتصارعةَ حولها، وما نتج عن هذا الحدث من خطابات؛ مثّلت تلك القوى المتصارعة، التي أبرزها؛ خطاب السلطة، والمعارضة، والموالاة.

كما يكشف – من خلال دراسة هذا الخطاب؛ حدث 14 فبراير – عن خطابات الربيع العربي الأخرى، وامتداداتها داخل الحدث، وأثرها في صياغة وتوجيه مسار الخطاب، وذلك من حيث إن الخطابات المتشابهة تمتح بعضها، ثم تندمج وتتناصّ؛ لينقل - بذلك - فاعلوها الخطاباتِ الأخرى إلى مواقفهم القولية الخاصة.

يتطلب تحليل الخطابات - التي تشكلت حول حدث 14 فبراير - صياغةَ إشكاليةٍ بحثية تحدد زاوية معالجتنا خطاباتِ هذا الحدث. ويمكننا أن نصوغ هذه الإشكالية في السؤال المركزي الآتي:

- كيف شكل حدث 14 فبراير خطابا سياسيا واجتماعيا يمثل قوى متصارعة ومختلفة، تعبر في مُجملها عن المجتمع البحريني، ومصالح جماعاته؟

يتفرع عن سؤال الإشكالية عدة أسئلة فرعية منها:

- ما الخطابات التي تشكلت حول حدث 14 فبراير؟

- كيف مثّلت الخطابات المشكّلة حول حدث 14 فبراير حقائقها السياسية؟
- ما المجازات التي صاغت من خلالها حقائقها؟
- ما آليات الحجاج التي استخدمتها لصياغة حقائقها؟
- كيف صاغت مفاهيمُ الصِدام - بكل خلفيته الثقافية والدلالية - هذه الخطابات؟

ترجع أهمية هذه الدراسة – من وجهة نظرنا – إلى حدث الـ 14 من فبراير ذاته؛ إذ إنه يُمثل مفصلا تاريخيا، لم يسبق لمملكة البحرين أن شهدت له نظيرا من قبل. أنتج هذا الحدث خطابات متصارعة سياسيا واجتماعيا وإعلاميا. خطابات لم يُتح لها – بعدُ - أن تُدرس دراسة علمية. من هنا، تأتي أهمية هذه الدراسة، التي تحاول أن تقترب من خطابات هذا الحدث، بمنهج علمي؛ هو منهج تحليل الخطاب.

إن منهج تحليل الخطاب هو الوسيط الذي نستعين به في هذه الدراسة. إنه الجسر الذي يجمع بين اللغة التي تُشكل الخطاب وبين مجتمع هذا الخطاب؛ إذ هو " تحليلٌ للعلاقات بين الخطاب (يتضمّن اللغة وأشكال سيرورة المعنى الأخرى، كَالتعبير بالجسد والصور المرئيّة) والعناصر الأخرى في الممارسات الاجتماعيّة. وهو يُعنى على وجه الخصوص بالتغيّرات الجذريّة التي تلحق بالحياة الاجتماعيّة المُعاصرة: مكان الخطاب في سيرورات التغيير، والتحوّلات في العلاقات بين الخطاب وسيرورات المعنى عامةً من جهة والعناصر الاجتماعيّة الأخرى في شبكات الممارسات من جهة أخرى "[1]، وبذلك فإن دراسة الخطاب السياسي؛ يجب أن تضع في اعتبارها أنه خطاب مجتمعي، غير معزول، عن واقعه ومحيطه.

من جهة أخرى؛ فإن اللغة التي تكوّن هذا الخطاب، لا يمكن أن تشير إلى ذاتها في ذاتها؛ أي إلى بنيتها التجريدية المغلقة[2]؛ " فلو لم تكن اللغة تحيل بعمق إلى الخارج، فهل كانت ستكون ذات معنى؟ كيف يمكننا أن نعرف أنّ العلامة تمثّلُ شيئاً ما، إذا لم تكتسب توجهها نحو الشيء الذي تمثله من استعمالها في الخطاب؟ "[3]. هذا الاستعمال هو ما يقودنا – بالتحديد – إلى إحدى أهم مقاربات تحليل الخطاب وهي: المقاربة التداولية؛ علم الاستعمال اللغوي. المقاربة التي تُعنى" بكل أشكال التفاعل الاجتماعي، والتفاعل الخطابي، ودراسة المعطيات اللغوية والخطابية المتعلقة بالتلفظ...، إنها تهتم بالعملية التواصلية في كل أبعادها النفسية والاجتماعية والإيديولوجية، وبدراسة العلاقة بين اللغة

1- نورمان فاركلوف، تحليل الخطاب، ترجمة: طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، 2009م، ص376.
2- وهذه طريقة البنيويين؛ من حيث إنهم يتمحضون، لدراسة اللغة في مستوياتها: الصرفية، والصوتية، والتركيبية، في مستواها الصوري المجرد، بعيدا عن استعمالها.
3- بول ريكور، نظرية التأويل/ الخطاب وفائض المعنى، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2003م، ص51-52.

والسياق "[1]، ما يؤكد انفتاحها – كمقاربة أصيلة الانتماء إلى التحليل النقدي للخطاب - على المناهج العلمية في العلوم الإنسانية، ومن ثم؛ يتيح فهم الأحداث التاريخية والسياسية والاجتماعية الفاعلة في مجتمعاتنا المعاصرة.

وبذلك فإن " المنظور التداولي ضمن دراسة الخطاب أكثر تخصصاً، حيث يميل إلى التركيز خصوصاً على مميزات ما لم يتم قوله وما لم يُكتب (بالرغم من إيصاله) ضمن الخطاب المراد تحليله. ولكي ننجز تداولية خطاب معين، علينا تخطي الاهتمامات الاجتماعية الابتدائية للتفاعل وتحليل المحادثة، والنظر خلف الأشكال والبنى الواردة في النص، والتركيز حثيثاً على مفاهيم نفسية مثل المعرفة الخلفية والمعتقدات والتطلعات. ففي تداولية الخطاب، نكون مجبرين، لا مخيرين، على استطلاع ما في ذهن المتكلم أو الكاتب "[2]؛ مما يريد إيصاله من معنى إلى المتلقي، دون أن يقوله مباشرة.

يحيل ذلك؛ إلى بلاغة أو أدبية الخطاب التداولي، فما لم يُكتب أو يُقل في الخطاب؛ مما يسكت عنه المخاطِب أو المتكلم، إما مُضمر أو محذوف، يدل عليه دليل أو قرينة من ظاهر القول. وإن المدلولات المسكوت عنها؛ مدلولات (مُغرضة)؛ أي أنها لم تأت اعتباطا، بل؛ إنها مقصودة، عُمد إلى إخفائها؛ مراعاة للمقام، أو السياق التداولي. ينطبق ذلك على ظواهر لغوية أخرى، من مثل: التقديم والتأخير، والتنكير والتعريف، الوصل والفصل، والتورية، والكناية، والإيجاز، والإشارة، وغيرها.

وإن معنى القصدية هنا؛ يعني أن هناك سياسة لغوية بلاغية تعمل داخل هذا الخطاب، ألم يقل سهل بن هارون " إن سياسة البلاغة أشد من البلاغة "[3]، فكيف إذا تعاضدت والخطاب السياسي؛ إذ يحمل كل لفظ فيه؛ ظاهرًا، ومضمرًا؛ دلالة ذات أثر، لها قدرة على الاقتضاء والإحالة[4]. فالخطاب السياسي يستخدم أدوات البلاغة؛ لتكون وسيلة له في الإقناع، والحجاج، والتفوق الخطابي. هذا الأخير الذي يعني امتلاك الخطاب/ المعنى، ومن ثمّ؛ السُلطة.

يقود ذلك؛ إلى دراسة ما يُسمى بسياسة تملك المعنى. لَكأنّ من يملك ناصية المعنى/ اللغة هو الحاكم، وهو السلطة، والقوة. إذ ذاك يُطوِّع هذا المالك المعنى/ اللغة، ما شاءت له أغراضه السياسية. يكفّ لسان العرب عن كونه المرجعَ اللغوي، ويضحى المرجعُ ذهنيةً، ومزاجَ صاحب الخطاب.

---

[1]- حافظ اسماعيلي علوي، التداوليات/ علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2011، ص3.

[2]- جورج يول، التداولية، ترجمة: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم، ط1، 2010، ص 128.

[3]- أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، الجزء الأول، دار الفكر، ص 197.

[4]- ويُسمى الاقتضاء – كذلك- بالاستلزام. أما الإحالة؛ فهي تعني أن يحيل اللفظ إلى لفظ، أو موقف سابق، أو لاحق. ويعد هذان؛ الاقتضاء والإحالة من أهم القضايا التي تدرسها التداولية.

كشفت أحداث الربيع العربي، عن ماهية أو تعريف جديد، للغة العربية الرسمية، لدى الأنظمة السياسية خصوصًا. أصبح الرسمي " هنا عمليا لا في المطلق هو نمط طيّع من اللغة قادر على حمل المعنى الذي تسنده السلطة الرسمية لأقوالها وأفعالها، ولأقوال الآخرين وأفعالهم، وللظواهر أيضا هو نمط من اللغة لا يهمه لسان العرب بقدر ما يهمه تمَلّك المعنى: تملك المعنى سلطة، وهو آخر ما يتنازل عنه نظام تسلطي. ... المعنى الذي في رأس الدكتاتور يفصله عن الواقع، تماما "[1].

إن سياسة تملك المعنى؛ التي هي سياسة تسلطية، تجد تمثيلها في الخطاب. من هنا؛ تأتي أهمية دراسة خطاب الشمولية، ولاسيما أنه ليس خطاب فرد فقط، بل؛ هو خطاب دولة بأجهزتها الإعلامية والرقابية. وفي جزء منه، خطابُ جماعة كاملة؛ كالمعارضة. إن دراسة هذا الخطاب عبر أدوات المنهج العلمي؛ تُوقفنا على الطريقة، التي يُوظِف فيها الخطابُ الشمولي اللغةَ؛ لتملك المعنى، وفرضه على الشعب، من مثل؛ معنى المجتمع المدني، معنى المعارضة، معنى المطالب الديموقراطية، معنى الاحتجاج السلمي.

ولقد اقتضت دراسة الخطاب السياسي البحريني؛ وبالتحديد ما يتعلق بحدث الـ 14 من فبراير، جمع المعلومات والبيانات ذات الصلة؛ والتي تتمثل في الآتي:

1. خطابات السلطة؛ الملك والحكومة.
2. خطابات المعارضة.
3. خطابات الموالاة.
4. شعارات المتظاهرين؛ اللوحات، واللافتات، والرسوم الكاريكاتورية، وغيرها.
5. تحليلات الصحف؛ المحلية، والعربية، والدولية.
6. البرامج الحوارية التلفزيونية.
7. بيانات الجمعيات، والأحزاب السياسية، والحقوقية، والنقابات المختلفة.
8. الخطابات الفكاهية الساخرة؛ النكات، والأشرطة الهزلية.
9. المؤلفات، والكتب ذات العلاقة.

تتألف هذه الدراسة؛ من مدخل نظري، وثلاثة فصول:

المدخل النظري؛ وهو الذي يُشكل الإطار المنهجي للدراسة، والمُستند إلى أدوات، ومفاهيم التداولية، بوصفها مرجعيةً للتحليل، وهي: الأفعال الكلامية، التمثيل، المجاز، الحجاج، عنف اللغة، التضمين، القصدية، الملاءمة، السياق... إلخ. يتناول هذا الفصل شرح هذه المفاهيم شرحًا موسعا، وهو المنهج الذي سنقرأ من خلاله خطاب 14 فبراير.

[1]- الطاهر لبيب، افتتاحية مجلة العربية والترجمة، العدد 9، ص 4.

الفصل الأول: خطاب الشمولية

في هذا الفصل، نتناول؛ بالدراسة والتحليل، بيانات وخُطب السلطة الرسمية، والتي يجيء على رأسها: الملك، والداخلية، والدفاع، وذلك؛ بهدف الكشف عن المفاهيم النظرية، التي تشكل في مجموعها؛ ما يُعرف بالشمولية، وأبرز ملامحها في الخطاب، القائمة على سياسة احتكار، وتملُّك المعنى، وأحاديته.

يسعى هذا الفصل إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- هل كشف حدث 14 فبراير عن خطاب شمولي لدى السلطة؟
- ما هي أبرز المفاهيم النظرية، والسمات والملامح الشمولية، في خطاب السلطة؟ ما الذي صرحت به لغة الخطاب، وما الذي سكتت عنه؟
- كيف كشف الخطاب عن الممارسات الاجتماعية الشمولية للسلطة بوصفه - أي الخطاب - جزءا أصيلا من سياقه الاجتماعي؟

الفصل الثاني: خطاب الكذب

في هذا الفصل، نتناول بالدراسة والتحليل خطابات الإعلام الرسمي؛ المتلفز، والصحفي، إبان حدث 14 فبراير؛ بهدف الكشف عن المفاهيم النظرية، التي تشكل خطاب الكذب، وأبرز أدواته، وتقنياته اللغوية، المتمثلة في: الدعاية والشائعة.

يسعى هذا الفصل إلى الإجابة عن السؤال الرئيسي الآتي:

- كيف استخدم الإعلام البحريني البحريني، أدوات التعبير المختلفة؛ باللفظ، والصوت، والصورة، والحركة؛ للتعبير عن حدث الـ 14من فبراير، وما صاحبه من وقائع كلامية أو فعلية؟

الفصل الثالث: خطاب الكراهية

في هذا الفصل، نتناول بالدراسة والتحليل؛ خطابات كل من المعارضة، والموالاة؛ بهدف الكشف عن المفاهيم النظرية، التي تشكل خطاب الكراهية، وأبرز أشكاله في الخطاب، والقائم على اللغة، المشحونة بمعاني: العنف، والتطاحن، والصدام.

يسعى هذا الفصل - عبر أدوات التحليل - إلى الإجابة عن الاسئلة الآتية:

- كيف كشف خطاب حدث الـ14 من فبراير عن عنف اللغة؟
- ما هي الأساليب والاستراتيجيات اللغوية التي اتخذها هذا الخطاب، ليدير دفة الصراع من شعب وسلطة، إلى شعب وشعب؛ طائفة وأخرى؟
- وكيف تحول خطاب الكراهية إلى تقنية سياسية، تقف – جنبا إلى جنب – مع مآرب السلطة؛ لتحقيق أهدافها في بسط نفوذها واكتساب شرعية التدخل، وتبرير استخدام القوة والعنف؟

الخاتمة:

ونتناول فيها أهم النتائج التي تقودنا إليها الدراسة التحليلية التداولية، للغة الخطاب السياسي، في حدث الـ 14 من فبراير.

نسأل الله تعالى أن تكون هذه الدراسة إسهاما يسيرا؛ في تحليل لغة الخطاب التداولي السياسي لما أطلق عليه الربيع العربي بشكل عام، وحدث الـ 14 من فبراير البحريني بشكل خاص.

والله من وراء القصد.

تمهـــــــيد:

حدث 14 فبراير 2011

يُعنى هذا البحث بدراسة اللغة المكونة لخطاب حدث الـ 14 من فبراير 2011، وهو ما يُحتم – قبل كل شيء - تعريفا لهذا الحدث، يضع القارئ أمام سياقاته الثقافية، والاجتماعية، والتاريخية، ولاسيما أن هذه الدراسة تعتمد على المقاربة التداولية لخطاب الحدث، والتي ترتكز على السياق بشكل رئيسي.

فما هي ماهية أو طبيعة الحدث؟ ولماذا حدث؟ وأين حدث؟ ومتى حدث؟ أسئلة تشكل سياق الحدث، الذي هو أول أدوات تحليل الخطاب.

إن ماهية هذا الحدث سياسيةٌ؛ من حيث إنه يتناول موضوعات ومطالب سياسية، فالمخاطِب فيها فئة كبيرة من الشعب، والمخاطَب هو النظام أو الدولة. مكان الحدث مملكة البحرين، وتحديدًا ما اصطلح على تسميته بـ (دوار اللؤلؤة). أما تاريخ الحدث فهو 14 فبراير 2011.

قصة الحدث

عمدنا إلى هذه التسمية (قصة الحدث)؛ بسبب اختلاف ما يُروى حول هذا اليوم؛ 14 فبراير. وهي روايات أو كتابات تحمل انتماءات أو آراء أصحابها. منهم من يسمي الحدث ثورة، وهم الفئة المعارضة التي ترى أن ما حصل في 14 فبراير؛ إنْ هو إلا امتداد للثورات العربية الأخرى، المعروفة بـ (ثورات الربيع العربي)[1]، والتي يهدف مجملها إلى إسقاط الأنظمة الدكتاتورية القائمة، وإحلال أنظمة ديمقراطية بديلة. هذه الفئة اتبعت الآليات والتقنيات نفسَها، في استهلالها حركتَها؛ من حيث اختيارها أكثر المواقع حساسية؛ لتكون مراكز لها. تحمل هذه المراكز مسميات مشابهة لمواقع الثورات العربية الأخرى، إضافة إلى اعتمادها التحشيد، والدعاية ليوم الثورة، على مواقع التواصل الاجتماعي؛ الفيسبوك والتويتر.

يعبر عن هذا التحشيد ما جاء في حصاد الساحات: " كان بيان يوم الغضب البحريني الذي أطلقته مجموعة شبابية على الشبكة العنكبوتية يدعو إلى كتابة دستور جديد، بالإضافة إلى إنشاء هيئة مفوضة شعبيا تعمل للوصول إلى توافق ومصالحة وطنية، تمر

[1]- وتسمى ربيع الثورات العربية، والتي بدأت في تونس، ثم انتقلت إلى مصر، وليبيا، واليمن، وامتدت شرارتها إلى المنطقة الشرقية في السعودية، وعمان.

عبر البت والمحاسبة في التعديات على الثروات العامة والتجنيس السياسي، وضحايا الأمن من معتقلين ومعذبين، بالإضافة إلى الفســـاد "[1].

وحول أسباب التخطيط الشبابـي للحدث؛ ذهب أحد الكتاب البحرينيين إلى القول إنه: " صادف يوم 14 شباط/ فبراير 2011 ذكرى مرور عشرة أعوام على العمل بالميثاق الوطني، ووجود توجه لدى الملك والقوى السياسية لتقييم تجربة ديموقراطية ما بعد الميثاق، ولفتح حوار مجتمعي بشأن تطوير تلك التجربة إلى مستويات ديمقراطية أعلى. ولما جاء مناسبة 14 شباط/ فبراير البحرينية في قلب الأحداث العربية الكبرى، كان طبيعيا أن تتأثر بأطروحاتها وأهدافها ووسائلها واعتمادها الكبير على وسائل التواصل الاجتماعي، وعلى قيامها في الأساس على أكتاف الشباب غير المنتظم في أحزاب سياسية، مثلهم مثل زملائهم الشباب في مصر وتونس واليمن وغيرها "[2].

ويرى البعض الآخر من الفئة الموالية للنظام البحريني أن ما حصل في مملكة البحرين، لا يعدو كونه احتجاجات، بدأت سلمية، ثم تخطت هذه السلمية إلى العنف. يروون الحدث كالتالي: " في مطلع صباح ذلك اليوم، اندلعت العديد من الاحتجاجات في قرى عدة، حاملة معها مطلبا معيشيا ودعوة شرعية للإصلاح، تعاملت معها قوات الأمن بشكل سلمي، لكنها تطورت في ما بعد إلى ما وراء السلمية، فاحتاج الأمر تصرفا أمنيا صارما عندها "[3]. وهم بذلك يَرون أن " ما يُعرف بـ " ثورة 14 فبراير " لا توصف إلا بمؤامرة كبرى على وطن وعروبة شعب وتاريخ وحضارة أمة "[4]، وأن " ما يسمى بـ " ثورة 14 فبراير" ما هي إلا أكذوبة كبرى، حرَّكها مَنْ اشرأبت أحلامهم للوصول إلى مرتبة ليسوا أهلا لها "[5].

ومهما يكن اختلاف مسمى الحدث، لدى تلك الفئات، فإننا نرى أن كل فئة منها؛ عمدت إلى خلق قاموسها اللغوي، بما يتناسب وخطابها السياسي، فما وافق خطابها اعتمدته، وما خالفها نبذته، وإنْ اتفق مع المعجم اللغوي أو الاصطلاحي. وهذا ما يؤكد أن الثورة – كما يقول الطاهر لبيب – ثورة معنى، فالكل يسعى إلى تملك المعنى الذي يريد[6].

وبذلك؛ فإن ما حفل به حدث 14 فبراير، من مفاهيم، من مثل: الثورة، الانتفاضة، الاحتجاج الشعبي أو السلمي، التطهير، المؤامرة، الخونة، الميدان، الائتلاف، ... إلخ؛

---

[1]- حصاد الساحات 2011/ ربيع البحرين، ملحق أصدرته مرآة البحرين؛ الصحيفة الالكترونية المعارضة، ص28، انظر: bahrainmirror.com .

[2]- توفيق المديني وآخرون، الربيع العربي... إلى أين؟/ أفق جديد للتغيير الديمقراطي، مركز دراسات الوحدة العربية، تحرير عبدالإله بلقزيز، بيروت، ط1، 2011، ص 305.

[3]- طارق العامر وخالد هجرس، أبعاد الحقيقة/ 14 فبراير " أكذوبة ثورة "، مطبعة المنامة، 2011، ص 17.

[4]- نفسه، ص9.

[5]- نفسه، ص 10.

[6]- بتصرف، توفيق المديني وآخرون، ص 8.

هو أول ما يضع أيدينا على خطاباته المتصارعة، التي تكشف عن اشتغال لغوي لافت، داخل هذه الخطابات.

منهج الدراسة

يهدف هذا البحث إلى دراسةَ اللّغة المكوّنة للخطاب السياسي، في حدث الـ 14 فبراير في البحرين، والكشف عن آلياتها وأدوات اشتغالها في تكوين ذلك الخطاب.

تستند هذه الدراسة إلى المنهج أو النظرية التداولية، مستعينة بأهم أدواتها، ومفاهيمها في تحليل الخطاب، وبالتحديد خطاب حدث الـ 14 من فبراير، وهو ما يجعل هذه الدراسة مرتكزة على الجانب السياسي؛ من حيث إن الحدث سياسي، في الدرجة الأولى.

وبذلك؛ فإن ما ينبغي التركيز عليه – من وجهة نظرنا – كمدخل تمهيدي لدراسة هذا الحدث دراسةً نقدية لغوية؛ هو اللغة، والخطاب، والسياسة، وعلاقة كل منها بالآخر، ثم؛ التداولية ومفاهيمها، التي نشتغل عليها في فصول البحث.

وذلك على النحو التالي:

الخطاب لغة واصطلاحا

على الرغم من شيوع مفردة الخطاب، في بطون الكتب والدوريات المختلفة؛ إذ إنه من أكثر المصطلحات استعمالا في كثير من المجالات والمعارف– على الرغم من ذلك- فإن الوقوف أمام تعريف دقيق، يدّعي مقاربة مفهوم الخطاب، يعد أمرا صعبا للغاية. إن مفردة الخطاب من الانكشاف والاستعمال؛ بحيث لا تفتأ تتخلى عن بعض معانيها، لتكتسبَ معاني أخرى، في سيرورة إنسانية لا تنتهي.

ولذلك؛ فإن أقرب ما يمكن الاستقرار أو الثبات عليه حول الخطاب هو التعريف اللغوي له؛ والذي أجمعت على مقاربته المصادرُ اللغوية العربية القديمة؛ تلك التي تفيد معاني: الكلام، والحديث، والبيان، والبيّنة. إذ ورد في لسان العرب أن " الخطاب والمُخاطبة: مراجعة الكلام[1]، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخِطابا، وهما يتخاطبان "، و" أن الخُطبة عند العرب: الكلام المنثور المسجع، ونحوه: التهذيب: والخُطبة، مثل الرسالة، التي لها أول وآخر... وخَطُب؛ بالضم، خَطابة؛ بالفتح: صار خطيبا... والمخاطبة، مُفاعلة؛ من

[1]- ورد في لسان العرب أن " راجعه الكلام مراجعةً ورِجاعا: حاوره إياه. وما أرجع إليه كلاما أي ما أجابه. وقوله تعالى: (يرجع بعضهم إلى بعض القول)؛ أي يتلاومون. والمراجعة: المعاودة. والرجيع من الكلام: المردود إلى صاحبه. انظر: لسان العرب، ابن منظور، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1999، مادة: خطب.

الخطاب والمشاورة، أراد: أنت من الذين يخطبون الناس، ويحثونهم على الخروج، والاجتماع للفتن... و(فصْل الخطاب) قال: هو أن يحكم بالبيّنة أو اليمين؛ وقيل معناه أن يفصل بين الحق والباطل، ويميز بين الحق وضده... وقيل: فصل الخطاب الفقه في القضاء "[1].

ولمّا كان المعنى اللغوي، يشتمل على مفردات؛ الخطابة، والخطيب، والخُطبة أو الكلام، والحوار، والمخاطَب؛ فهذا يعني أنه يركز على العناصر الأولية، لأي رسالة تتطلب وجود: مرسل، ومتلق وسياق اجتماعي، وهي ذاتها الموجودة لدى رومان ياكبسون، في مخططه التواصلي اللغوي المعروف.

إن التعريف اللغوي لأي مفردة كانت؛ يشكل المرجعية الأولى لأي تعريف اصطلاحي لها؛ ذلك أن التعريف الاصطلاحي؛ يبدأ عادة بمقاربة التعريف اللغوي، ثم لا يلبث أن ينفك عنه، حتى يكاد يفلت من إساره، ولعل مفردة (الخطاب)، أبرز دليل على ذلك.

تبدأ بعض التعاريف الاصطلاحية للخطاب بعدِّه رسالة، تنتظم في بناء من الأفكار، فهذا محمد عابد الجابري يقارب المفهوم اللغوي؛ حين يُماهي بين النص والخطاب: " النص رسالة من الكاتب إلى القارئ فهو خطاب.. الخطاب باعتباره مقول قول الكاتب... فهو بناء من الأفكار... يحمل وجهة نظـــر "[2]، هدفها التأثير في الآخرين، فهي فكرة لم تُقَل عبطا أو كيفما اتفق؛ لذا يُعرِّف آخر الخطاب بأنه " كل نطق أو كتابة تحمل وجهة نظر محددة من المتكلم أو الكاتب، وتفترض فيه التأثير على السامع أو القارئ، مع الأخّذ بعين الاعتبار مجمل الظروف والممارسات التي تم فيها "[3].

نجد من التعريفين السابقين أنهما يحاكيان المعاني اللغوية القديمة، غير أن هناك من التعاريف الاصطلاحية ما يَمس المعنى اللغوي مسا ظاهريا أو سطحيا. وهناك ما يقف عنده؛ ليتجاوزه إلى معان منفتحة. بل هناك ما ينحرف عن معناه اللغوي؛ ليشكل له معنى اصطلاحيا خاصا أو جديدا، إما أن يرتبط بشخص؛ فيصطلح عليه بخطاب فلان؛ كخطابات فوكو وموشلر... إلخ، أو يرتبط بتخصص أو تصنيف إنساني ما؛ كأن نقول خطابا اجتماعيا أو سياسيا أو براجماتيا... إلخ.

فالخطاب حينا؛ " "كل تشكيلة للمعنى" وهذه التشكيلة مكونة من قوانين اللغة والكلام والثقافة وضغوطات السياسة والمصالح والقوى... إلخ "[4]، وبذلك يعد أداة معرفية، زِد

---

[1]- نفسه.

[2]- محمد عابد الجابري: تحليل الخطاب العربي المعاصر/ دراسة تحليلية نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، 1994 ، ص8.

[3]- أحمد عبدالله الطيار، تأويل الخطاب الديني في الفكر الحداثي الجديد، حولية كلية 4- أصول الدين، القاهره، العدد 22، المجلد الثالث، 2005، ص 12.

[4]- علي الديري، الخطابات والمؤسسات الرمزية/ كيف تدير الخطابات عقولنا، حصاد، 2001، ص39 .

عليها أنه زمني، أي أنه مرتبط بحقبة زمنية محـددة، ممـا يعنـي؛ أن مقاربتـه تستـدعي تاريخه، تمامـا كأي حـــدث، فـ " الخطاب وحده يوجد في لحظة زمنية وحاضرة... الخطاب من حيث هو واقعة يختفي "[1]، فهو في حالة فلتان دائم؛ كالزمن تماما.

لا يقف الخطـــاب عند كونه مجرد ألفاظ، أو مفـــردات، ومصطلـحات ذات دلالات ما، بل؛ ذاك الذي " ينبغي النظر إليه على أنه موقف ينبغي للغة أن تحاول العمل على مطابقته"[2]، إذ يغدو كيانا منفصلا؛ " بعد فوكو يتغيّر الموقف بالكلية، ويصبح بالإمكان الكلام على ممارسات خطابية ضمن الممارسات الفكرية أو ربما وراءها. وبذا أصبح الخطاب موضوعا من موضوعات البحث تُنتَج حوله معارف تتعلق به لا بسواه... وبكلام آخر: أن يكون للخطاب كينونته المستقلة وحقيقته الخاصة"[3].

وحين يستقل الخطاب في معناه، ويكتسب كينونة خاصة؛ إنه بذلك يخرج عن المعنى اللساني؛ الذي يحصره في الكلام، أو النص، أو الجملة؛ لينفتح كأي كائن بشري، على المعارف، والعلوم الإنسانية المختلفة، والتي يصبغ كل علم منها الخطابَ بمعالمه وأفكاره واستراتيجياته؛ وهو ما جعل الخطاب حركيا في مفهومه الاصطلاحي، مُتفلتا في معناه، ودلالاته.

الخطاب واللغة

على الرغم من الخلط المفهومي بين المفردتين؛ اللغة، والخطاب، والذي يُرجع معظمه هاتين المفردتين إلى معنى أو دلالة واحدة؛ إن هذا الخلط له ما يبرره؛ ذلك أن العلاقة بين الخطاب واللغة علاقة حميمية. يظهر الخطاب على أنه شكل، أو إطار للغة. وتظهر اللغة على أنها؛ جوهر أو روح الخطاب. من ثم؛ تشبه العلاقة بينهما علاقة الروح، والجسد. الروح لا تستقر دون جسدها. والجسد لا حراك له دون روح. بل يتماهى كل واحد منهما في الآخر أحيانا، فيصعب التمييز بينهما؛ أيهما الروح، وأيهما الجسد.

فإذا كان الخطاب – كما سبق تعريفه – تشكيلة واسعة من المعاني؛ فإن هذه المعاني، لا يمكن لها أن تتم دون منظومة اللغة، التي يتشكل بواسطتها هذا الخطاب، والتي يُبنى كلمةً كلمةً من خلالها؛ ليصير نصا أو نصوصا يُشار إليها بالخطاب. تُشبه اللغة – إلى

---

[1]- نظرية التأويل وفائض المعنى، ص57.
[2]- جمعان عبدالكريم، إشكالات النص/ دراسة لسانية نصية، النادي الأدبي بالرياض والمركز الثقافي العربي، 2009، ص39 .
[3]- علي حرب، النص والحقيقة/ نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 1995م، ص 105.

حد كبير – مواد البناء، ويشبه الخطاب بيتا جاهزا للسكن. ولكن؛ بعد أن أثثته اللغة، وأخرجته في صور، وأشكال. هكذا يغدو الخطاب " تركيبة معقدة من العلاقات اللغوية "[1]، يبرز إلى السطح، إلى سياقه الاجتماعي، بوصفه ممارسة اجتماعية؛ ليعمل، ويفعل، وينجز، بواسطة اللغة، ومن خلالها.

تُعرَّف اللغة بأنها " ألفاظ يُعبَّر بها عن المسميات، وعن المعانى المراد إفهامها "[2]، فهي وإن كان حدُّها – أي شكلها - كما يشير ابن جنــي أصواتًا" (فإنها أصوات) يعبر بهــا كل قوم عن أغراضـهم "[3]، مما يدل على أن اللغة، تحمل مغازيَ، وأهدافًا، ودلالات لغوية واجتماعية معا.

وما دامت اللغة كذلك؛ فإنها لا يُمكن أن تُختزل في أداة اتصال، وعلاقة اتصالية بين مرسل ومستقبل وشيفرة، بل؛ ما يُجسّد معاني، وحقائق فلسفية كبرى. أخذ بعض الفلاسفة واللغويين يعدّ اللغة مأوى الكينونة. يساوقها في هذا المعنى الخطابُ؛ وهذا ما يعني أنْ " للخطاب كينونته المستقلة وحقيقته الخاصة، معناه إعادة الاعتبار للعلامات والأسماء بوصفها بُعدًا من أبعاد الكينونة، معناه أن اللغة لم تعد تدرك بوصفها مجرد أداة للتواصل أو الإيصال، بل أصبحت تدرك في كينونتها الحقيقية بوصفها موطن الوجود، إذ بها يُسمّى كل شيء باسمه الخاص ويكتسب هويته وأحديته "[4]؛ معناه ألّا مناص من إدراك الخطاب، وسياقاته، وفاعليه من دونها.

وما دامت اللغة هي الوجود؛ فإن خلفَها تقبع حقيقة الأشياء. في كتابه عنف اللغة " يُعيد لوسيركل التأكيد أن عالمنا هو لغتنا، وأن اللغة ليست ذلك البناء الهندسي المنتظم الذي يقيمه عالم اللغة، بل هي الحياة بكل تناقضاتها وفوضويتها "[5]، فما يُقال أو يُكتب من خطابات، أو نصوص لغوية؛ إنْ هو إلا الحياة؛ مواقفها الاجتماعية، أشخاصها، في صورة أو أخرى.

وحين تصبح اللغة حياة، فإنه لا يمكن النظر إليها، على أنها مجرد تلك القواعد أو الأنظمة (صرفية، صوتية، تركيبية، صرفية ... إلــخ)، ولكن؛ تلك التي تحيل إلى خارجها؛ محيط الخطاب، بيئتـــــه؛ " فلو لم تكن اللغة تحيل بعمق إلى الخارج، فهل كانت ستكون ذات معنى؟ كيف يمكننا أن نعرف أنّ العلامة تمثّلُ شيئا ما، إذا لم تكتسب

1- حصاد، ص 34.
2- ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ج 1، القاهرة، دار الفكر، 1978، ص 52.
3- أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ج 1، دار الكتب المصرية، 1952، ص33.
4- النص والحقيقة/ نقد الحقيقة، ص 105.
5- جان جاك لوسركل، عنف اللغة، ترجمة وتقديم: محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2005م، ص24.

توجهها نحو الشيء الذي تمثله من استعمالها في الخطاب؟ "[1]. هذا يعني أن اللغة، لا بد لها أن تشير إلى موضوعها الخارجي؛ هذا الذي تشكلُّه في صورة خطاب.

إن القول بأن اللغة موطن الوجود، ومأوى الكينونة؛ قولٌ على مستوى لافت جدا من المجاز؛ إذ يمنح اللغة قوة رمزية، ذات أثر نفسي كبير. يكاد يُضفي على اللغة معاني القداسة ويُقرِّبها من الألوهة[2]؛ ولاسيما أن الإنسان نفسه خرج إلى حياته الدنيا؛ ليجدها – أي اللغة - راسخة أمامه؛ بوصفها موضوعا خارجيا مفروضا عليــه؛ ولا خيار له، بها يكون حضوره، وبها تتأكد ذاتـــه، وبها يتأنســن؛ " والحقيقــة أن " الكلمة "، أو اللغة، هي فعلا التي تخلق للإنسان ذلك العالم الأقرب إليه من أي عالمِ موضوعات طبيعية، وتلامس رخاءه وكربه على نحو مباشر أكثر من الطبيعة المادية، لأن اللغة هي التي تجعل وجوده في جماعة ما ممكنـا؛ وفي المجتمع وحده، في علاقة لـه بـ " أنت "، تؤكد ذاتيتُه نفسها كـ " أنا " "[3]، تنتمي إلى سياق اجتماعي واحد، وهوية واحدة.

من هنا؛ يجمع كاسيــرر بين اللغة والأسطورة، ويعدهما توأمًا، أو وجها لعملة واحـدة. يقـول: " جميع البنى اللفظية تبدو أيضا ككيانات أسطورية؛ أُسبِغت عليها قوى أسطورية معينة، والواقع أن الكلمة تصبح نوعا من القوة الأولية، التي يتولد فيها الوجود بأسره والفعل بأسره "[4]؛ فكيف إذا شكّلت هذه الكلمة/ اللغة خطاباتنا، بما لها من هذه القوى الأسطورية أو السحرية! لا شك أنها ستمجد حينا، وستحط حينا آخر. ستُؤسطر أناسا، وسترمي آخرين إلى العدم.

فهل كان لحدث 14 فبراير كلمته/ لغته (خطاباته) السحرية؛ التي أسطرت جهة أو أشخاصا أو حالة (أي جعلتهم أقرب إلى الأسطورة) دون سواهم؟ هل سمّت لغة الخطاب الأشياء - في حدث 14 من فبراير- بأسمائها وحقائقها كما هي؟ هل حايثتها وأصبحت كشفا لها؟ هل صنّفت لغة الخطابات الأشخاص وانتماءاتهم وبيئاتهم الاجتماعية؟ هل أوجدت أناسا مُقدسين، ولوّثت – بذلك - آخرين؟ هذا ما نتوخى دراسته في فصول البحث.

1- نظرية التأويل، ص51-52.

2- إن القول بألوهة اللغة هنا لا يعني تقديس اللغة بشكل حقيقي؛ فاللغة في رأيي: تتطور، وتتجدد، وتندثر، تموت، وتحيا؛ فهي عرضة للتلوث كما يقول باختين.

3- أرنست كاسيرر، اللغة والأسطورة، ترجمة: سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، مشروع كلمة للترجمة، ط1، 2009، ص114.

4- نفسه، ص88.